خُلُقُ العِفَّةِ وَتَطبيقَاتُهُ في القُرآنِ الكَرِيم

الدكتور: أحمد سليمان البشايرة(*)

مُلخّصُ البَحث

إن سمو النفس وشموخها يتمثل فيما تتحلى به من سمات ذاتية قائمة في كيانها منبثقة مما ألهمها الله من التقوى، تتجسد بمنظومة متكاملة من عناصر بناء الإنسان العقلية والنفسية التي دعا إليها القرآن. وتشتمل عناصر بناء النفسية على مكارم الأخلاق التي رسم القرآن منهاجها وبين حدودها وأقام لها المثل العليا متمثلة بمن جعلهم الله قدوة حسنة للقاصدين ومنارات هدى للسائرين، يمكن أن تنظر إليها متكاملة في منظومة أخلاقية قرآنية شاملة، أو تنظر إليها مجزأة في كل خلق كريم من مكوناتها التي أوفاها القرآن الكريم بياناً.

وهذا البحث يسلط الضوء على واحد من مجاميعها متمثلاً في خلق العفة الكاشف عن عزة النفس وترفعها وضبطها من داخلها برصيد وافر من التقوى، يتناول بيان مفهوم خلق العفة وأهميته، والتوجيه إلى تحقيقه من جانب نظري توجيهي، ومن جانب عملي تطبيقي.

ويهدف إلى الكشف عن مدى عناية القرآن الكريم بالأخلاق ومدى تلاحمها مع العقيدة، وكيف أشاد بمكارم الأخلاق وأهلها، ونصب للخلق نماذج إنسانية عالية الشأن، تكون موضع الأسوة الحسنة، وحصناً وعدة للمؤمن يصارع بها في خضمِّ التيارات المادية التي تسعى لمسخ الصورة الإنسانية الكريمة؛ لتهوي بها إلى دركات من الفجور والسقوط.

(*) أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم أصول الدين، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، عمان، طبربور.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهداه إلى أقوم سبيل، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين صاحب الخلق العظيم المبعوث بالدين القيم ليقيم الناس على الحق، ويتمم مكارم الأخلاق؛ ليفتح بها باب المنافسة إلى أعلى الدرجات، وأقرب المنازل، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن القرآن الكريم يشتمل على منظومة متكاملة من القيم والأخلاق السامية التي وجه الإنسان إليها وجعلها جزءاً لا يتجزأ من معالم الدين وركائزه، يربي عليها الأفراد والمجتمعات بغية السمو بالإنسان إلى أعلى مراتب الصورة الإنسانية الراقية. ويسلط هذا البحثُ الضوءَ على خلق العفة في مفهومه وأهميته والتوجيه إلى تحقيقه من جانب نظري توجيهي، ومن جانب عملي تطبيقي، وذلك من خلال شخصيات قرآنية جسدت هذا الخلق، وكشفت عن صورته الناصعة التي تعطي القدوة الحسنة في مواقف بطولية في ميادين الأمانة، وضبط النفس وسموها. كما فيه توجيه إلى صبغ نفوس المؤمنين بالصبغة القرآنية، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وإرشادها إلى عنصر من أهم عناصر تقويم النفس وبيان قدرها.

وكان الدافع لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب أهمها:

١. أني لم أجد مَنْ أفرد هذا الخُلُقَ بدراسة تفسيرية موضوعية خاصة مستقاة من آي القرآن الحكيم.

٢. ما لهذا الخلق الكريم وإشاعته من أهمية في بناء شخصية المسلم وتهذيب نفسه وتوجيهه نحو مكارم الأخلاق وصفات المروءة والسمو نحو الفضائل القرآنية.

٣. أهمية هذا الخلق في حفظ المجتمع وصيانته، وما يترتب على إشاعته من تحقق الأمن على الأعراض والأموال؛ لأنه ضابط للنفس من داخلها يغني الدول عن كثير من أجهزة الرقابة وأعبائها.

وتوخياً لتحقيق هذا البحث لأغراضه فقد اقتضى أن يتكون من ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: معنى العفة في اللغة والاصطلاح والاستعمال القرآني.

المبحث الثاني: خلق العفة في القرآن دراسة إرشادية توجيهية.

المبحث الثالث: خلق العفة في القرآن دراسة تطبيقية.

المبحث الأول

معنى العفة في اللغة والاصطلاح والاستعمال القرآني

قال الخليل: «العِفَّةُ: الكَفُّ عمَّا لا يحِلُّ. ورجل عَفيف، يَعِفُّ عِفَّة، وقَومٌ عَفُّون... وأعْفَفْتُه عن كذا: كَفَفْته، وامرأةٌ عَفَّةٌ بَيِّنَةُ العَفاف»[1].

وقال ابن منظور: «العِفّة: الكَفُّ عَمَّا لَا يَحِلّ ويَجْمُلُ. عَفَّ عَنِ المَحارِمِ والأَطْماع الدَّنِية يَعِفُّ عِفَّةً وعَفّاً وعَفافاً وعَفافة، فَهُوَ عَفِيفٌ وعَفٌّ، أَي كَفَّ وتَعَفَّفَ واسْتَعْفَفَ وأَعَفَّه اللهُ.. وَفِي الْحَدِيثِ: (مَنْ يَسْتَعْفِف يُعِفّه اللهُ)[2]، الاسْتِعْفاف: طلَبُ العَفَافِ وَهُوَ الكَفُّ عَنِ الْحَرَامِ وَالسُّؤَالِ مِنَ النَّاسِ؛ أَي: مَنْ طَلَبَ العِفّة وتكلَّفها أَعطاه اللهُ إِيَّاهَا، وَقِيلَ: الاسْتِعْفَاف الصبْر والنَّزاهة عَنِ الشَّيْءِ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك العِفَّة والغِنى)[3]، وَالْحَدِيثُ الآخَرُ: (فَإِنَّهُمْ مَا عَلِمْتُ أَعِفَّةٌ صُبُرٌ)[4]، جَمعُ عَفِيف. وَرَجُلٌ عَفٌّ وعَفِيف، والأُنثى بِالْهَاءِ، وَجَمْعُ العَفِيف أَعِفَّة وأَعِفَّاء، وَلَمْ يُكَسِّروا العَفَّ، وَقِيلَ: العَفِيفَة مِنِ النِّسَاءِ السَّيِّدَةُ الخَيِّرةُ. وامرأَة عَفِيفة: عَفّة الفَرج، وَنِسْوَةٌ عَفَائِفُ، وَرَجُلٌ عَفِيف وعَفٌّ عَنِ المسأَلة والحِرْصِ، وَالْجَمْعُ كَالْجَمْعِ؛ قَالَ وَوَصَفَ قَوْماً: أَعِفَّة الفَقْرِ؛ أَي: إِذَا افْتَقَرُوا لَمْ يغْشَوا المسأَلة الْقَبِيحَةَ. وَقَدْ عَفَّ يَعِفُّ عِفَّة واسْتَعَفَّ؛ أَي: عَفَّ. وَفِي التَّنْزِيلِ:

(١) الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري، المتوفى (١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال (٩٢/١).

(٢) صحيح مسلم، باب فضل التعفف والصبر برقم (١٠٥٣). ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المتوفى (٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، إسناده صحيح على شرط الشيخين. عبد الرزاق: هو ابن همام الصنعاني، ومعمر: هو ابن راشد، والزهري: هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب. وهو عند عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠١٤).

(٣) الحديث بلفظ: (اللَّهُمَّ إني أسألك العفة والعافية)، الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين بن قاضي خان الشهير بالمتقي، المتوفى (٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) برقم (٣٦٨٣). والسيوطي في الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، تحقيق: يوسف النبهاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، برقم (٢٤٥٦).

(٤) سنن الترمذي، برقم (٣٩٠٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». الحاكم، المستدرك على الصحيحين حديث رقم (٦٩٧٣)، قال الذهبي في التلخيص: صحيح.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦]، وتَعَفَّفَ: تكلَّف العِفَّة. وعَفَّ واعْتَفَّ: مِنَ العِفَّة؛ قَالَ عَمْرُو بْنُ الأَهتم:

إِنَّا بَنُو مِنْقَرٍ قومٌ ذَوُو حَسَبٍ ... فِينا سَراةُ بَني سَعْدٍ وَنَادِيهَا

جُرْثُومةٌ أُنُفٌ يَعْتَفُّ مُقْتِرُها ... عَنِ الخَبِيثِ ويُعْطِي الخَيْرَ مُثْرِيها[1]»[2]

وقال: «العُفَافَة بَقِيَّةُ اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ بَعْدَ ما يُمتَكُّ أَكثره، قَالَ: وَهِيَ العُفَّة أَيضاً. وَفِي حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ: (لَا تُحَرِّمُ العُفَّةُ)[3]؛ هي بَقِيَّةُ اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ بَعْدَ أَن يُحْلَبَ أَكثرُ ما فِيهِ»[4].

وقد جمع الراغب بين المعنيين في منهجه الذي يبين أصل المعنى الحسي للمادة اللغوية وصلته بالاستعمالات الأخرى، فقال: «العِفَّةُ: حصول حالة للنَّفس تمتنع بها عن غلبة الشَّهوة، والمُتَعَفِّفُ: المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر، وأصله: الاقتصار على تناول الشيء القليل الجاري مجرى العُفَافَة، والعُفَّة، أي: البقيّة من الشيء»[5].

وفي التنزيل الحكيم وردت مادة عف ومشتقاتها في أربعة مواضع على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ومعناها الكفُّ عن سؤال الناس تعفُّفاً عما في أيديهم من المال، قال الطبري: «يحسبهم الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء من تعفُّفهم عن المسألة، وتركهم التعرض لما في أيدي الناس، صبراً منهم على البأساء والضراء»[6].

(١) السراة: الأشراف. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث (٣٦٣/٢). والجراثيم: كل شَيْء مُجْتَمِع، وَالْوَاحد جرثومة. وقد تكون: أصل الشَّيْء. الهروي: غريب الحديث (٦٤/١). الإقتار الفقر وقلة ذات اليد. انظر: لسان العرب (٧١/٥). والمثري: من أثرى القوم إذا كثرت أموالهم. الأزهري: تهذيب اللغة (٨٣/١٥).

(٢) ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، المتوفى (٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ) (٢٥٣/٩).

(٣) هذا الحديث استدل به ابن منظور في لسان العرب، وابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: (٢٦٤/٣). ولم أجده في كتب الحديث.

(٤) نفس المصدر. وانظر: الهروي: أبو عبيد القاسم بن سلام، غريب الحديث، دار الكتاب العربي (٦٢/٣).

(٥) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى (٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ) (ص٥٧٣).

(٦) الطبري: محمد بن جرير، المتوفى (٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م) (٥٩٣/٥).

وقال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦]، يعني الكف عن مال اليتيم سواء كان ذلك قرضاً أو مقابل عمله وتنميته لماله على خلاف في ذلك(١). يأتي له بيان موجز قريباً.

وقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] «فسَّره ثَعْلَبٌ فَقَالَ: ليَضْبِطْ نَفْسَهُ بِمِثْلِ الصَّوْمِ فَإِنَّهُ وِجاء»(٢)، أي: عن شهوة الفرج الحرام حتى يتيسر له الحلال.

وقال: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]؛ يعني ترك وضع الجلابيب والأردية، قال الطبري: «وإن تعففن عن وَضْعِ جلابيبهنَّ وأرديتهنَّ، فيلبسنها خير لهنّ من أن يضعنها»(٣).

وأما المعنى الاصطلاحي فقد عَرَّفها ابن مسكويه، فقال: «وأمَّا العِفَّةُ فهي فضيلة الحِسِّ الشهواني وظهور هذه الفضيلة في الإنسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأي؛ أعني أن يوافق التمييز الصحيح حتى لا ينقاد لها ويصير بذلك حراً غير متعبد لشيء من شهواته»(٤).

ثم قال: «وأمَّا العفة فهي وسط بين رذيلتين وهما: الشره وخمود الشهوة». وقال: «أعني بالشره الانهماك في الملذَّات والخروج فيها عما ينبغي، وأعني بخمود الشهوة السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة التي يحتاج إليها البدن في ضروراته، وهي ما رَخَّص فيه صاحب الشريعة والعقل»(٥).

(١) انظر: الجصاص أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي، المتوفى (٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تاريخ الطبع (١٤٠٥هـ) (٣٥٩/٢).

(٢) ابن منظور: لسان العرب (٢٥٣/٩).

(٣) الطبري: التفسير (٢١٨/١٩).

(٤) ابن مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، المتوفى (٤٢١هـ)، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، حققه وشرح غريبه: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى (ص٢٦).

(٥) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق (ص٣٦).

وعَرَّفها الراغب الأصفهاني بأنها: «ضبط النفس عن الملاذِّ الحيوانية، وهي حالة متوسطة بين إفراط هو الشره، وتفريط هو جمود الشهوة»[١].

وعَرَّفها القاضي عبد النبي صاحب «دستور العلماء»[٢] بالإِمْتِنَاع عَمَّا لا يحل. وَفِي الْأَخْلَاق هِيَ هَيْئَة للقوة الشهوانية متوسطة بَين الْفُجُور الَّذِي هُوَ إفراط هَذِه الْقُوَّة والخمود الَّذِي هُوَ تفريطها - فالعفيف من باشر على وَفْق الشَّرْع والمروءة، وتحقيقها فِي الْعَدَالَة[٣]. ومدار هذا التعريف لا يخرج عما ذكره السابقون، وإن اختلفت العبارة.

ولا يظهر هذا الخلق إلا بالعراك والاحتكاك والمعايشة والمخالطة للناس[٤] والتعرض للمواقف التي تُمتحن بها النفس.

ويمكن أن نُعَرِّفها تعريفاً جامعاً لهذه المعاني، فنقول: إن العفة خلق من الأخلاق الفاضلة التي يتحقق بها ضبط النفس في حدود الاعتدال بين شهوتين مذمومتين هما الفجور الذي يدعو إلى الانهماك في الشهوات، والخمول الذي به حرمان النفس من لذة جميلة تعتبر من ضرورات البدن، والسلوك بها في منهج معتدل على وفق ما رَخَّص به الشرع والعقل، يعرف بالاحتكاك والمخالطة، وهي متولدة عن خُلُقين عظيمين من أخلاق الإسلام أحدهما الحياء والثاني الصبر.

(١) الراغب: الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار النشر: دار السلام، القاهرة، عام النشر (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م) (ص٢٢٤).

(٢) هو الشيخ القاضي عبد النبي بن عبد الرسول بن أبي محمد بن عبد الوارث العثماني الأحمد نكري، له مصنفات منها: جامع الغموض ومنبع الفيوض شرح بسيط على كافية ابن الحاجب، ودستور العلماء في اصطلاحات العلوم والفنون في أربعة مجلدات، وحاشية بسيطة على شرح التهذيب لليزدي ألف كتابه دستور العلماء سنة (١١٨٣هـ)، ولم تعرف سنة وفاته. انظر ترجمته: الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني، المتوفى (١٣٤١هـ)، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) (٧٥٩/٦).

(٣) نكري: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، «جامع العلوم في اصطلاحات الفنون»، عَرَّب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م) (٢٣٤/٢).

(٤) انظر: المصدر نفسه (ص٣٨).

والخلق صفة مستقرة في النفس جِبِلِّيَّة أو مكتسبة تقتضي المدح أو الذم، ووصفها بالفاضلة يقتضي المدح لما فيها من الاعتدال في ضبط النفس عن شهوة تدل على غريزة مستقرة في النفس لا تقتضي الذم أو المدح لذاتها. والذي يقتضي المدح أو الذم هو سلوك الإنسان في إشباعها، وذلك بضبطها بما يتوافق مع العقل أو ما يأمر به الشرع. وأما القيد الدال أن الكشف عنها يكون بالاحتكاك والمخالطة يجعله خلقاً من الأخلاق الاجتماعية، التي تلزم في التعايش، فيُعَدُّ من أهم الضوابط التي تقي المجتمع الكثير من السلبيات يكشف عنه التعرض لأسباب إشباع الغرائز في حال تدعو إلى الشره، ولا يمسك النفس عن ذلك إلا ما استقر فيها من خلق ودين وعقل يضبطها من داخلها، فيكون الإنسان قَيِّماً على نفسه.

وهي بهذا تعد فرعاً من الأمانة وصورة من صور التحلي بالتقوى، وهي من أعظم القيم الاجتماعية التي لا غنى لمجتمع عنها. وتتداخل مع القيم الأخرى التي لا يمكن الفصل بينهما، إذ إنها تنبثق عن العقيدة التي تسود ذلك المجتمع أو يتحلَّى بها الشخص. وقد عدها الإمام الماوردي من شُرُوط الْمُرُوءَةِ فِي التَّفْسِ، فقال: «فَأَمَّا شُرُوطُهَا (يعني المروءة) فِي نَفْسِهِ بَعْدَ الْتِزَامِ مَا أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ مِنْ أَحْكَامِهِ فَيَكُونُ بِثَلاثَةِ أُمُورٍ، وهِيَ: العِفَّةُ وَالنَّزَاهَةُ وَالصِّيانَةُ. فَأَمَّا الْعِفَّةُ فنَوْعانِ: أَحَدُهُمَا: العِفَّةُ عَن المَحارِمِ، والثَّاني: العِفَّةُ عَن المَآثِمِ. فَأَمَّا الْعِفَّةُ عَنْ المَحارِمِ فنَوْعانِ: أَحَدُهُمَا: ضَبْطُ الْفَرْجِ عَن الحَرامِ، والثَّاني: كَفُّ اللِّسانِ عن الأَعْراضِ»[1].

ومن جميل ما قيل فيها ما أنشده محمد بن جرير الطبري[2]:

إذا أَعْسَرْتُ لم يَعْلَمْ رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماءَ وجهي ... ورِفْقي في مُطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت ببذل وجهي ... لكنت إلى الغنى سهلَ الطريق

(١) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، المتوفى (٤٥٠هـ): أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، (١٩٨٦م) (ص٣٢١).

(٢) في «تاريخ بغداد» هنا ترجمة الطبري وليس فيه الشعر. الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، المتوفى (٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة (١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م) (١٧٠/١١).

والقرآن كتاب الهداية الشاملة يكشف بهديه الشامل عن كثير من القيم والمبادئ الاجتماعية والإيمانية، موجّهاً إليها توجيهاً نظرياً مدللاً على أهميتها وأثرها، مُبْرزاً صوراً من نماذج عملية في القدوة الحسنة التي تعد أمثلة واقعية لسمو هذه القيم، وكيف يرتقي أصحابها إلى أعلى المراتب، وتجعل منهم أبطالاً حقيقيين ينتصرون على الشهوات والمتع الرخيصة في سبيل إعلاء المبادئ والقيم.

المبحث الثاني

خلق العفة في القرآن: دراسة إرشادية توجيهية

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الثناء القرآني على خلق العفة والإرشاد إليه.

المطلب الثاني: الثناء القرآني على أشخاص تميزوا بالعفة.

المطلب الثالث: وسائل الإعفاف التي وجَّه إليها القرآن.

المطلب الأول: الثناء القرآني على خلق العفة والإرشاد إليه:

ورد في القرآن آيات عديدة في الثناء على العفة وبيان فضلها والإرشاد إليها في مجالين هما: العفة في مجال الأموال، والعفة في مجال شهوة الفرج، وإليك بيان ذلك بقسميه:

الأول في مجال الأموال:

١. قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وهذه في مجال التعفف في ضبط النفس عن الاستزادة من المال عن مقدار الحاجة. وقد وصفت الآية المتعففين بأنهم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، وفسر القرطبي معنى ﴿إِلْحَافًا﴾ فقال: «مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الحَالِ، أَيْ: مُلْحِفِينَ، يُقَالُ: أَلْحَفَ وَأَحْفَى وَأَلَحَّ فِي الْمَسْأَلَةِ سواء، وَاشْتِقَاق الإلحافِ مِنَ اللِّحَافِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى وُجُوهِ الطَّلَبِ فِي المَسْأَلَةِ كاشتِمَالِ اللِّحافِ مِنَ التَّغْطِيَةِ؛ أَيْ: هذا السَّائِلُ يَعُمُّ النَّاسَ بِسُؤَالِهِ فَيُلْحِفُهُمْ ذلِكَ»[(١)]. وقال ابن العربي: «مَعْنَاهُ الشُّمُولُ بِالمَسْأَلَةِ إِمَّا لِلنَّاسِ، وإِمَّا فِي الأَمْوَالِ؛ فيَسْأَلُ مِن النَّاسِ جَمَاعَةً، ويَسْأَلُ مِن المالِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحتاجُ إِلَيْهِ وبِناءُ «لُحِفَ» لِلشُّمُولِ، ومِنْهُ اللِّحَافُ؛ وَهُوَ الثَّوْبُ الَّذِي يَشْتَمِلُ بِهِ، وَنَحْوُهُ الإِلْحَاحُ؛ يُقَالُ: أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ إِذَا شَمِلَ رِجَالاً أَوْ مَالاً، وَأَلَحَّ فِيهَا إِذَا

(١) القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، المتوفى (٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية (١٣٨٤هـ-١٩٦٤م) (٣/٣٤٢).

كَرَّرَهَا»[1]. والكف عن السؤال بهذه الصورة مع الحاجة صفة حميدة تكشف عن سمو النفس في القناعة بالقليل والترفع عن الاستزادة من المال بشَرَهٍ وإشراف نفس، مع أن المانع لهم عن الضرب في الأرض أمر إيجابي لصالح الأمة وهو الجهاد أو ما أصابهم من جراحات أو الفقر لهجرتهم في سبيل الله وتركهم ديارهم وأموالهم[2].

وقد وجَّه النبي ﷺ إلى هذا الخلق الكريم قولاً وعملاً، فمن القول: (ارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس)[3]، وقوله: (مَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللهُ ومَنِ اسْتَعَفَّ أعفَّه اللهُ وَمَنِ اسْتَكَفَّ كَفاهُ اللهُ وَمَنْ سَأَلَ ولَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ)[4]. ومنه ما رواه أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ؛ أَنَّ نَاساً مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ: (مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ وأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ)[5].

(١) القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي، المتوفى (٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، راجع أصوله وخَرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣١٨/١).

(٢) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب (٦٧/٧-٦٨).

(٣) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، المتوفى (٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، حققه: الدكتور عبد العليّ عبد الحميد حامد، بإشراف: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م) برقم (٨١١٩). قال الشيخ عبد الله الدويش: حديث: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس». قال - يعني الألباني - في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (٢٠) برقم (١٧) و(ص٦٥، ٩٥): ضعيف. قلت: هكذا ضعفه، وقد خالف ما ذكره هنا في السلسلة برقم (٩٣٠) وصحيح الجامع (ج٤) (ص١٨٦) فصححه، والله أعلم. تنبيه القارئ لتقوية ما ضعفه الألباني، ويليه: تنبيه القارئ لتضعيف ما قواه الألباني. عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش، المتوفى (١٤٠٩هـ)، تقديم: سماحة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز، أشرف على طبعها وتصحيحها: عبد العزيز بن أحمد بن محمد المشيقح، الناشر: دار العليان للنشر، بريدة، الطبعة الأولى (١٤١١هـ- ١٩٩٠م) (٤٩/١).

(٤) الإمام أحمد، المسند، برقم (١١٠٦٠)، قال محققو مسند الإمام أحمد (شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي): «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن» (٩٧/١٧)، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المتوفى (٣٠٣هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ- ٢٠٠١م) (٧٨/٣).

(٥) صحيح البخاري، باب الاستعفاف عن المسألة، الحديث برقم (١٤٦٩)، صحيح مسلم باب التعفف والصبر، برقم (١٠٥٣)، الأصبحي: الإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر المدني، المتوفى (١٧٩هـ)، الموطأ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م) (١٤٥٢/٥) الحديث برقم (٨٣٥)، النسائي، السنن الصغرى، الحديث برقم (٢٥٨٨).

وفي العلاج العملي ما يقصه حكيم بن حزام عن نفسه حين وقف رسول الله ﷺ على دائه حيث يقول: (سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي: يا حكيم إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا). فكان حكيم بعد ذلك من أشد الناس قناعة، لا تستشرف نفسه للمال ولا يشرئب إليه، (فكان أبو بكر يدعوه ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه، فقال: يا معشر المسلمين؛ إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه)[1].

فانظر كم ترك هذا القول المبارك من أثر؟ وكيف يوجه إلى أمور عظام منها الإرشاد إلى سِرِّ البركة في المال، في مقابل سرِّ نزع البركة منه، كما يوجه النفوس إلى أن تعف وتكف عن الشره، ويوطنها أن تكون ذات يد عليا لا يد سفلى. ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان الإنسان عاملاً منتجاً، كافاً لنفسه معطياً لغيره، كما وجه إلى ذلك بقوله: (لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[2]، واليد السفلى آخذة، فهي عالة على المجتمع. ولا تستساغ إلا لمن كان عاجزاً عن الكسب.

٢. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: ٦]. قال القرطبي في تفسيرها: «بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى مَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَأَمَرَ الْغَنِيَّ بِالْإِمْسَاكِ وَأَبَاحَ لِلْوَصِيِّ الْفَقِيرِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَالِ وَلِيِّهِ بِالْمَعْرُوفِ. يُقَالُ: عَفَّ الرَّجُلُ عَنِ الشَّيْءِ وَاسْتَعَفَّ إِذَا أَمْسَكَ. وَالِاسْتِعْفَافُ عَنِ الشَّيْءِ تَرْكُهُ»[3]. واختلف العلماء في حد

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما كان ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، حديث رقم (٣١٤٣).

(٢) صحيح البخاري، برقم (١٤٧١)، النسائي، السنن الصغرى، برقم (٢٥٨٩)، الإمام أحمد، المسند، برقم (٧٤٩٠).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٤١/٠). وانظر: ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي، المتوفى (٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ) (١١/٢).

المعروف، فذهب فريق إلى أنه يستلف من مال يتيمه على سبيل القرض ويقضي إذا أيسر، ولا يتسلف أكثر من حاجته، لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «إني نزلت نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت»(١). وذهب فريق إلى أنه لا قضاء على الوصيِّ الفقير فيما أكل بالمعروف، قال الحسن: هي طعمة من الله له، وذلك بمقدار الضرورة بما يقيمه ويكتسي ما يستر عورته، ولا يلبس الكتان والحلل، ويكون ذلك من إنتاج المال وثمرته مع المحافظة على أصله، ويعد ذلك من قبيل الأجرة على القيام بشؤونه والعمل على خدمته. وذلك لقوله ﷺ: (كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَاذِرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ)(٢)، ولإجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّ الإِمَامَ النَّاظِرَ لِلْمُسْلِمِينَ لاَ يَجِبُ عَلَيْهِ غُرْمُ مَا أَكَلَ بِالْمَعْرُوفِ(٣).

فهذه الآية شرعت الولاية على مال اليتيم وهو أمر لا بد منه لرعايته وحفظه، ولم تمنع الفقير من تَوَلِّي هذه المسؤولية خوفاً من أكل مال اليتيم، وإنما ساوت في المسؤولية بين الفقير والغني اعتماداً على ما أرساه الإسلام من قواعد الإيمان والخلق الكريم الذي يزود المسلم برصيد إيماني يعلو به فوق الطمع في المال(٤)، وأزال ما كان متعارفاً عليه في الجاهلية من حرمان الصغار من الميراث، وأوصى كلاً من الغني والفقير بما

(١) هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره برقم (٨٥٩٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٠٩/٣)، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م) دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المتوفى (٣٠٣هـ)، السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م)، حديث رقم (٣٦٦٨)، والحديث له شواهد بلفظه وبألفاظ مقاربة وهو صحيح لغيره. انظر: تحقيق د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد لكتاب التفسير من سنن سعيد بن منصور، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ- ١٩٩٧م) (١١٥٩/٣-١١٦٢).
والمُتَأَثِّلُ: هو الجامع، وكل شيء له أصل قديم أو جُمع حتى يصير له أصل، فهو مؤثَّل. غريب الحديث لأبي عبيد (١٩٢/١).

(٣) انظر: ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الإشبيلي المالكي، المتوفى (٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م) (٤٢٣/١-٤٢٤)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٥-٤٢)، ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١١/٢). ولهم في المسألة تفاصيل ومناقشات ليس هذا موضعها.

(٤) انظر: الشعراوي، محمد متولي، المتوفى (١٤١٨هـ)، تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم (٢٠١٤/٤).

يتناسب مع حاله؛ فأما الغني فليستعفف، وأما الفقير فليأكل بالمعروف. وفي كلا التوجيهين ضبط ومراقبة للنفس عن الشَّرَهِ والطمع في مال تحت يد الولي لشخص ضعيف لا يملك من قوة الدفاع عن نفسه إلا ما عند المجتمع من رصيد إيماني، وخلق نبيل.

الثاني في مجال شهوة الفرج:

١. حيث جاء الأمر للمؤمنين بالتعفف عن شهوة الفرج لمن يعجز عن النكاح، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، فهذه الآية الكريمة جاءت تأمر كل من بلغ سن النكاح وأصبحت نفسه تتوق إليه وهو لا يملك من أسباب النكاح ما يؤدي به الصداق والنفقة أمراً إرشادياً أن يستعفف، فيجتهد في الصبر، وضبط النفس عن الزنى الحرام ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣] بالتوسعة عليهم من رزقه وتهيئة أسباب النكاح الحلال(١).

٢. ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ففي هذه الآية إرشاد وتوجيه إلى العفة مع الترغيب بثمارها التي تحقق الطهارة من خلال غَضِّ الأبصار وحفظ الفروج، إذ جاء الأمر بذلك للمؤمنين، وقَدَّم تحريم النظر على حفظ الفروج التي هي المقصود الأساسي من الكلام ليعلم الناس جميعاً ما للنظر من خطر وأثر، وأنه رسول الشهوة وبريد الزنى، وبذرة الفسق والفجور، ووجَّه إلى رقابة الله الذي لا يخفى عليه شيء في ضبط النفس.

(١) هذا المعنى مستخلص من عدد من التفاسير. انظر: الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، المتوفى (١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ) (٣٤٤/٩)، ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، المتوفى (١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤هـ) (٢١٨/١٨)، الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، المتوفى (٤٦٨هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) (٣١٨/٣).

وكل أمر في القرآن للمؤمنين فهو كذلك للمؤمنات، ولكنه أعيد الحكم هنا مع المؤمنات لأنَّ النساء في أشد الحاجة إلى ذلك[1]، ولأهمية غض البصر في سبل الوقاية، فسيأتي مزيدُ حديثٍ عنه ضمن وسائل الإعفاف التي وجَّه إليها القرآن.

كما جاء الثناء على العفة وبيان فضلها وأهميتها في السنة النبوية بمفهومها العام الذي به الكف عن جميع المحارم مما يتعلق بالمال والفرج وغيره، وذلك قوله ﷺ: (أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ)[2]. وشرح الهروي الحديث بقوله: «(وَعَفِيفٌ) بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ الثَّالِثُ مِنَ الثَّلَاثَةِ أَيْ: مُجْتَنِبٌ عَمَّا لَا يَحِلُّ (مُتَعَفِّفٌ) أَيْ: عَنِ السُّؤَالِ مُتَوَكِّلٌ عَلَى الْمَلِكِ الْمُتَعَالِ فِي أَمْرِهِ وَأَمْرِ عِيَالِهِ مَعَ فَرْضِ وَجُودِهِمْ، فَإِنَّهُ أَصْعَبُ، وَلِهَذَا قال: (ذُو عِيَالٍ) أَيْ: لَا يَحْمِلُهُ حُبُّ العِيَالِ وَلَا خَوْفُ رِزْقِهِمْ عَلَى تَرْكِ التَّوَكُّلِ بِارْتِكَابِ سُؤَالِ الْخَلْقِ، وَتَحْصِيلِ الْمَالِ الْحَرَامِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِمْ عَنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَشَارَ بِالْعَفِيفِ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَانِعَةِ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَبِالْمُتَعَفِّفِ إِلَى إِبْرَازِ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ وَاسْتِعْمَالِ تِلْكَ الْقُوَّةِ لِإِظْهَارِ الْعِفَّةِ عَنْ نَفْسِهِ. قَالَ الطِّيبِيُّ: وَإِذِ اسْتَقْرَيْتَ أَحْوَالَ الْعِبَادِ عَلَى اخْتِلَافِهَا لَمْ تَجِدْ أَحَداً يَسْتَأْهِلُ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَيَحِقَّ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا وَهُوَ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ غَيْرُ خَارِجٍ عَنْهَا»[3]. فالعفة صفة جامعة لمعاني ضبط النفس عن كل ما ليس لك به حق يستحق صاحبها أن يكون من أهل الجنة.

المطلب الثاني: الثناء القرآني على أشخاص تميزوا بالعفة:

جاء التنزيل الحكيم بالثناء على مَنْ تميز بخلق من الأخلاق الفاضلة، أو كان له موقف من المواقف التي تُعَدُّ صورة مثالية للأسوة الحسنة، ونسلِّطُ الضوء في هذا البحث على من تميزوا بخلق العفة، وهم: يحيى بن زكريا، ومريم ابنة عمران عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه، وعائشة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها.

(١) انظر: الحجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة العاشرة (١٤١٣هـ) (٦٧٤/٢).

(٢) صحيح مسلم، بَابُ: الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، برقم (٢٨٦٥).

(٣) القاري: علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي، المتوفى (١٠١٤هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م) (٣١٠٦/٧).

١. جاء التنزيل الحكيم بالثناء على يحيى بن زكريا عليهما السلام ووصفه بالحصور في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وَالحُصُور: أصله من الحصر وهو الحبس، يقال: حَصَرْتُ الرجل عن حاجته إذا حبسته، وحَصَرْت من كذا أحصر إذا امتنع منه، وحصر فلان في قراءته إذا امتنع من القراءة فلم يقدر عليها، ومنه إحصار العدو. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]؛ أي: محبساً. ويقال للرجل الذي يكتم السر ويحبسه ولا يظهره: حصر[١].

وقال المبرد: «الحصور الذي لا يدخل في اللعب والعبث والأباطيل، وأصله من قول العرب الذي لا يدخل في الميسر حصور»[٢]. وقالوا: هو الذي لا يأتي النساء ولا يقربهنَّ، فهو على هذا القول: مفعول بمعنى فاعل، يعني: أنه يحصر نفسه عن الشهوات[٣].

وقد ذكر المفسرون في معنى الحصور أقوالاً ذكرها ابن كثير والرازي ورجحوا بينها، فقال الرازي: «وَأَمَّا الْمُفَسِّرُونَ: فَلَهُمْ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ عَاجِزاً عَنْ إِتْيَانِ النِّسَاءِ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَانَ ذَلِكَ لِصِغَرِ الْآلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَانَ ذَلِكَ لِتَعَذُّرِ الْإِنْزَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَانَ ذَلِكَ لِعَدَمِ الْقُدْرَةِ. فَعَلَى هَذَا الْحَصُورُ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَحْصُورٌ عَنْهُنَّ، أَيْ مَحْبُوسٌ، وَمِثْلُهُ رَكُوبٌ بِمَعْنَى مَرْكُوبٍ وَحَلُوبٌ بِمَعْنَى مَحْلُوبٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ عِنْدَنَا فَاسِدٌ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ النُّقْصَانِ، وَذِكْرُ صِفَةِ النُّقْصَانِ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ لَا يَجُوزُ، وَلِأَنَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يَسْتَحِقُّ بِهِ ثَوَاباً وَلَا تَعْظِيماً»[٤]. وعليه فيكون المعنى: «أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ، أَيْ لَا يَأْتِيهَا كَأَنَّهُ حُصِرَ عَنْهَا»[٥].

(١) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر، المتوفى (٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م) (٣٧٦/٦).

(٢) الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، المتوفى (٤٢٧هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م) (٦٤/٣).

(٣) نفس المصدر.

(٤) الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري، المتوفى (٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ) (٢١٢/٨).

(٥) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، المتوفى (٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م) (٣٨/٢).

قال الرازي: «وَالْقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ اخْتِيَارُ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُ الَّذِي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ لَا لِلْعَجْزِ بَلْ لِلْعِفَّةِ وَالزُّهْدِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَصُورَ هُوَ الَّذِي يَكْثُرُ مِنْهُ حَصْرُ النَّفْسِ وَمَنْعُهَا كَالْأَكُولِ الَّذِي يَكْثُرُ مِنْهُ الْأَكْلُ، وَكَذَا الشَّرُوبُ، وَالظَّلُومُ، وَالْغَشُومُ، وَالْمَنْعُ إِنَّمَا يَحْصُلُ أَنْ لَوْ كَانَ الْمُقْتَضِي قَائِماً، فَلَوْلَا أَنَّ الْقُدْرَةَ وَالدَّاعِيَةَ كَانَتَا مَوْجُودَتَيْنِ، وَإِلَّا لَمَا كَانَ حَاصِراً لِنَفْسِهِ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ حَصُوراً؛ لِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى تَكْثِيرِ الْحَصْرِ وَالدَّفْعِ إِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ قُوَّةِ الرَّغْبَةِ وَالدَّاعِيَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَعَلَى هَذَا الْحَصُورُ بِمَعْنَى الْحَاصِرِ فَعُولٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ»[1].

وهذا القول هو الذي يليق بمقام المدح والثناء وعرض الصورة التي تكون موضع القدوة الحسنة وذلك بترك المحذور لا عن عجز ونقص، ولكنه يضبط نفسه بعناية وصبر عن قصد، مع وجود دواعي القدرة وكمال الشهوة.

٢. جاء الثناء من الله تعالى على مريم ابنة عمران عليها السلام في آيتين كريمتين أولاهما في سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، والثانية في سورة التحريم وهي قوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]. حملت الآيتان الثناء على مريم الصديقة؛ لعفتها وحصانتها، واتفقتا على العبارة نفسها ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: حفظته من الحلال والحرام حفظاً يحق له أن يذكر ويتحدّث به، كما قال تعالى حكاية عنها: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٠]؛ لأنّ ذلك غاية في العفة والصيانة والتخلي عن الملاذِّ إلى الانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الأمانة والاجتهاد في متانة الديانة[2]، وقد اتفقت الآيتان على المقصد العام، وهو هذه الحصانة التي هي سِرُّ التكريم، ورَفْع المنزلة.

(١) الرازي: مفاتيح الغيب (٢١٢/٨).

(٢) الشربيني: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشافعي المتوفى (٩٧٧هـ)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة (١٢٨٥هـ) (٥٢٨/٢).

واختلفت الآيتان في عدة أمور في النظم كشف عن أسرارها أصحاب المتشابه نتركها لخروجها عن موضوعنا(١).

٣. براءة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما: نزل الوحي الكريم في إعلان براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، على إثر الحادثة التي رماها بها أهل الإفك، وليس غرضنا هنا تناوُلَ القصة بتفاصيلها(٢)، فقد أوردها الكثير من أئمة الحديث وأصحاب السير والمفسرين.

ولكن غرضنا هنا إبراز التزكية القرآنية لعَلَمٍ من أعلام الهدى، ورمز من رموز الإسلام في آيات بينات تتلى، وما حملته هذه الآيات من دفاع عن الفضيلة وأهلها، مع ما تثبته من وجود نماذج إنسانية رفيعة الشرف عظيمة القدر، لا تحوم حولهم شبهة الفجور، ولا يخطر لهم ببال، والعفة جزء لا يتجزأ من كيانهم، كما نصبت سداً منيعاً يكشف عن مقاصد أهل الفجور والنفاق وطريقة تفكيرهم ومحاولات نيلهم من أهل الإيمان، ومدى استهانتهم بأعراض المسلمين، ويحسبون الكلام في أمانة يعتزون بها أمراً هيناً وهو عند الله عظيم، وقد استهلت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، فأعلنت أن ما جاء به المنافقون إفك مبين. والإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك. وأصله: الأفك، وهو القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمراد: ما أُفِك به على عائشة رضي الله عنها(٣).

كما كشفت هذه الآيات عما في هذا الحدث المؤلم من ردة فعل، فيها خير لمن تعرضوا لهذا الإيذاء، وما يتبعه من خير يعود على المسلمين عامة، وفي بيان كونه خيراً يقول

(١) انظر: الغرناطي: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، المتوفى (٧٠٨هـ)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣٥٢/٢). البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، المتوفى (٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (٤٧١/١٢).

(٢) انظر: صحيح البخاري: برقم (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، صحيح مسلم برقم (٢٧٧٠).

(٣) الزمخشري: الكشاف (٢١٧/٣). وانظر: الراغب، المفردات (٧٩).

الزمخشري: «أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به، فلم تمجَّه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها»(١).

كما نبهت المؤمنين إلى هذا الخلق الرصين الذي يجده المؤمنون في أنفسهم يقيسون عليه إخوانهم في الإيمان، فكيف بمن يفضلهم بسابقة من الخيرات والمواقف ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ كي لا يقبلوا هذه الإشاعات الظاهر بطلانها حِينَ أَفَاضَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِ الْإِفْكِ، فَقَالَ: ﴿لَّوْلَآ﴾ بِمَعْنَى: هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى. كما وقع ذلك من أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وقد أخرج الطبري: «أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أمّ أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أمّ أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة واللهِ خير منك»(٢).

كما كشف الحدث عن أسلوب من أساليب المنافقين والمغرضين وأهل الزيغ في محاربة المجتمع الإسلامي في أخلاقه وقيمه ومبادئه، من خلال التشكيك في أهل الحصانة والعفة من رموز الخير وأئمة الهدى، الذين يُمَثِّلون القدوة الصالحة للمؤمنين في توهيم وقوع الخطل والزلل منهم، مما يمهِّد لإشاعة الفاحشة عند ضعاف الإيمان.

(١) الكشاف: (٣/٢١٧ – ٢١٨)، وانظر: البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، المتوفى (٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ) (٤/١٠٠).

(٢) الطبري (١٩/١٢٩).

المطلب الثالث: وسائل الإعفاف التي وجه إليها القرآن:

سلك القرآن العظيم وسائل لإعفاف النفس البشرية وكفها عن الحرام وذلك من طريقين:

الأول: الأمر بالزواج والتسري الذي يقع به تلبية حاجة النفس بالسبل المشروعة، ويكفيها بالحلال عن الحرام. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣]. إذ دلَّت الآية على مشروعية الزواج وإباحة التعدد فيه بِاثْنَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَأَرْبَعٍ، وجعل في التعدد سعة تغني عن الحرام لمن رغب فيه.

وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥] فقد دلَّت الآية على أن مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْ نَاحِيَةِ المَالِ، وَالقُدْرَةِ عَلى الإِنْفَاقِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الحَرَائِرَ العَفِيفَاتِ المُؤْمِنَاتِ (المُحْصَنَاتِ بِالحُرِّيَّةِ) فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الإِماء المُؤْمِنَاتِ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ تَعدُّوا نِكَاحَ الإِمَاءِ، عِنْدَ الحَاجَةِ إليه عاراً، فهو حلال مشروع ولكن العار بالحرام غير المشروع. وذلك لمن خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الوُقُوعَ فِي الزِّنَى (خَشِيَ العَنَتَ)، وَشَقَّ عَلَيهِ الصَّبْرُ عن الجماع، فلا حرج من التزوج بالإماء، وإن كان الصبر عن نكاح الإماء مع العفة أولى وأفضل[1].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] ففي هذه الآية خطاب للأولياء المأمورين بتزويج من لا زوج لها ومن لا زوجة له ممن هم تحت ملكهم أو ولايتهم. والمعنى: زَوِّجوا أيها الأولياء الأيامى: وهم كل رجل أو امرأة لا زوج لهما، وزوِّجوا الصالحين من الأولاد والإماء للزواج، وهذا الأمر للندب والاستحسان[2].

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٠). التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية (ص٨٢) بتصرف.

(٢) انظر: القرطبي (١٢/٢٣٩).

ولا يتعلل الأولياء بفقدان المال، فالله تبارك وتعالى وعد بإغناء الفقراء الراغبين في الزواج طلباً لإعفاف النفس؛ اعتصاماً بطاعة الله عن معاصيه، أن يغنيهم، فهو الغني الذي لا تنفد خزائنه، يبسط الرزق لعباده على وفق الحكمة والمصلحة، ويخص الأزواج بمزيد من العطاء، لاستمرار الحياة الزوجية(١)، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثة كلهم حقٌّ على الله عونُه: المجاهد في سبيل الله، والناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء)(٢).

الثاني: سلوك السبل الوقائية لإعانة النفس على العفاف وحماية المجتمع بقيم إيمانية شرعية. ذلك أن الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته يهدف إلى صياغة النفس المؤمنة والمجتمع الإسلامي بجملة من القيم والأعراف والآداب الإيمانية التي تحفظ النفس من الوقوع في الحرام، وتعين على ضبط النفس مما يكلفها الكثير من المعاناة والصبر، الذي قد لا تقوى عليه في غير هذه البيئة التي يصنعها الإسلام، معالجةً للأمر قبل وقوعه. يقول سيد قطب رحمه الله: «والفكرة السائدة في منهج التربية الإسلامية في هذه الناحية، هي تضييق فرص الغواية، وإبعاد عوامل الفتنة وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة، مع إزالة العوائق دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة»(٣).

كما تَوَعَّد أصحاب النفوس المريضة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمعات ويسلكون وسائل شتى منها إلصاق التهم بالأبرياء من رموز الإسلام وأعلام الهدى ليؤثروا على ضعفاء الإيمان بإيهامهم أن هؤلاء الأكابر يقعون في هذه الفواحش، فيهون عليهم ارتكابها، أو يسعون لإشاعة الفاحشة في المجتمع بأي وسيلة فهم داخلون في هذا الوعيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦/٥١).

(٢) مسند أحمد (٩٦٣١)، قال المحققون: «إسناده قوي من أجل محمد بن عجلان. يحيى: هو ابن سعيد القطان، وسعيد: هو ابن أبي سعيد المقبري»، ابن ماجه: السنن (٢٥١٨)، النسائي: السنن (٣١٢٠).

(٣) سيد قطب إبراهيم حسين، المتوفى (١٣٨٥هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة (١٤١٢هـ) (٤/٢٥٠٧).

كما حَذَّرَ من اتباع خطوات الشيطان وذلك بإغلاق المداخل التي يتسرب منها إلى النفس البشرية خطوة خطوة أو خطوة إثر خطوة على سبيل الاتباع أو الاستدراج، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١]. قال أبو السعود: «أي: لا تسلكُوا مسالكَه فيما تأتون وما تذرُون من الأفاعيل التي من جُملتِها إشاعةُ الفاحشةِ وحُبُّها ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وضعَ الظَّاهران موضعَ ضميريهما حيثُ لم يقلْ ومَن يتبعها أو ومَن يتبع خطواتِه لزيادة التقريرِ والمبالغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ علَّة للجزاءِ وضعتْ موضعَه كأنَّه قيل: فقد ارتكب الفحشاء والمنكر؛ لأن دأبه المستمرُّ أنْ يأمرَ بهما فمَن اتبعَ خطواتِه فقدِ امتثلَ بأمرِه قطعاً»(١).

وشَرَعَ الاستئذان قبل دخول بيوت الآخرين؛ لما لها من حرمة وخصوصية تجعل أهل البيت في حالة استرخاء وكشف العورات التي يحرم إبداؤها لغير المحارم، فوجب الاستئذان حتى لا تقع عين الزائر على ما لا يَحِلُّ النظر إليه مما يثير وساوس الشيطان، فقطعاً لهذه المداخل وصيانة لنفس المؤمن من الانزلاق شرع القرآن هذا الأدب الرفيع الذي يحفظ للبيوت حرمتها وللساكنين أمنهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢٧- ٢٨].

كما أمر بغَضِّ الأبصار عما لا يحل النظر إليه فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ

(١) أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المتوفى (٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٦/٦).

أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣٠-٣١]. في هذه الآية أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ، فَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعاً، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بْنِ عُبَيد، عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ جَدِّهِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ، عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أصرف بَصَري».(١) وقال لعلي: «لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ»(٢). وهو أَدَبٌ شَرْعِيٌّ عَظِيمٌ يدعو إلى مُبَاعَدَةِ النَّفْسِ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى مَا عَسَى أَنْ يُوقِعَهَا فِي الْحَرَامِ أَوْ يجرها إليه أو يُكَلِّفَهَا صَبْراً شَدِيداً في مجاهدة النفس للابتعاد عنه.

وقد فصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية أنواع النظر بين ما هو مقترن بالشهوة فهو محرم بالاتفاق، وما يجزم بأنه لا شهوة معه فلا باس فيه، وما هو بغير شهوة لكن مع خوف ثورانها، فالراجح فيه عدم جوازه معللاً ذلك بأن «الأصل أن كل ما كان سبباً للفتنة، فإنه لا يجوز، فإن الذريعة إلى الفساد يجب سَدُّها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة؛ ولهذا كان النظر الذي قد يُفْضي إلى الفتنة محرماً، إلا إذا كان لحاجة راجحة مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما، فإنه يباح النظر للحاجة مع عدم الشهوة، وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة فلا يجوز»(٣).

(١) صحيح مسلم، برقم (٢١٥٩)، الإمام أحمد، المسند، برقم (١٩١٩٧)، والترمذي في السنن، برقم (٢٧٧٦)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الإمام أحمد، المسند، برقم (٢٢٩٧٤)، قال المحققون: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف، وأخرجه أبو داود برقم (٢١٤٩)، والترمذي برقم (٢٧٧٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٥/٣)، وفي «شرح مشكل الآثار» (١٨٦٦، ١٨٦٧)، والحاكم (١٩٤/٢)، والبيهقي في «السنن» (٩٠/٧)، وفي «الشعب» (٥٤٢١، ٥٤٢٢).

(٣) ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي، المتوفى (٧٢٨هـ)، حجاب المرأة ولباسها في الصلاة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة السادسة (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م) (ص٤٤).

ولما كانت الأبصار مما لا غنى للإنسان عن النظر فيها لم يأمر بغَضِّها، وإنما أمر بالغض منها.

«وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أن فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية. ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم! وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة، ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى، ومن ثم جمع بينهما في آية واحدة بوصفهما سبباً ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع، كلتاهما قريب من قريب.

﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ﴾... فهو أطهر لمشاعرهم وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط، وهو أطهر للجماعة، وأصون لحرماتها وأعراضها، وجوها الذي تتنفس فيه.

والله هو الذي يأخذهم بهذه الوقاية، وهو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾[1].

كما شَرَع من الأحكام الشرعية المتعلقة باللباس والزينة وتحريم السفور والتبرج، والاختلاط والخلوة بالأجنبية، ما يُعَدُّ منظومة متكاملة تؤلف بمجموعها أسواراً تحفظ الفرد والمجتمع من التردي الأخلاقي[2].

وتَوَّج هذه الوسائل بترسيخ الإيمان في النفس البشرية، وتقوية وازع التقوى، والاستعداد للقاء الله تعالى والخوف من عقابه والطمع في جنته ورضوانه، فمن أتبع نفسه هواها خاب وخسر وكانت الجحيم هي مأواه، ومن كفها وضبطها بالتقوى فاز بجنة المأوى، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ * وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]، فسلطان الإيمان أقوى المؤثرات

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٤/٢٥١٢).

(٢) لا يتسع المقام للتفصيل في هذه الأحكام.

في النفس حين يجملها بالتقوى فيكفها عن المعايب والذنوب ويحملها على الاستقامة في شؤونه كلها أينما كان؛ لأن رقابة الله تصحبه في كل أحواله وأوقاته قال ﷺ: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ...)[1]، وهذه الحال وعد الله تعالى عليها أعالي الجنان. والآيات في ذلك كثيرة لا يتسع المقام لإطالة الوقوف معها، فإنه يخرج بنا عن مقصدنا، إذ الغرض هنا الإشارة إلى أصل السبب الذي يؤسس لهذا الخلق العظيم، ولكن أذكر منها قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. ثم وصف هذه الجنان بأوصاف تحمل المؤمن على المسارعة إلى تحقيق هذه الصفة والوفاء بحقها، ومنها كف النفس عن المحرمات التي هي الجوهر الحقيقي لخلق العفة.

(١) الإمام أحمد، المسند: برقم (٢١٣٥٤)، قال المحققون: «حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب، فقد روى له مسلم في المقدمة، وهو صدوق حسن الحديث، لكنه لم يسمع من أبي ذر كما قال أبو حاتم وغيره، ثم قد اختلف على سفيان - وهو الثوري - في إسناده، وأخرجه الدارمي برقم (٢٧٩١)، والترمذي برقم (١٩٨٧)، والحاكم (٥٤/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٧٨/٤)، والبيهقي في «الشعب» برقم (٨٠٢٦)، وفي «الزهد الكبير» برقم (٨٦٩) من طرق عن سفيان الثوري، بهذا الإسناد.

المبحث الثالث

خلق العفة في القرآن دراسة تطبيقية

يمكن أن نستخلص بعض النماذج العملية من خلال قصص القرآن وأخباره وحواراته البارعة التي تصور كثيراً من انعكاسات الإيمان على الحياة الاجتماعية، وسوف نقف على بعض من هذه النماذج القرآنية على النحو التالي:

المطلب الأول: موسى عليه السلام وابنة صاحب مدين.

المطلب الثاني: مراودة امرأة العزيز يوسف عن نفسه.

المطلب الثالث: مريم البتول والروح الأمين.

المطلب الأول: موسى عليه السلام وابنة صاحب مدين:

يحدثنا القرآن الكريم عن خروج موسى عليه السلام من مصر خائفاً من القتل بعد أن قتل القبطي، وعلم أن القوم يأتمرون به ليقتلوه، فقد مضى مهاجراً متوجهاً إلى ديار مدين.

وهنالك وقعت القصة التالية: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ * قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٣-٢٨].

هنا تبدأ صورة الحوار عندما وصل موسى إلى ماء مدين ورأى هنالك أمراً لافتاً للنظر.

وعلى مقربة من الماء بعيداً عن القوم أدنى إلى موسى[1] امرأتان تذودان ماشيتهما حتى لا تختلط مع ماشية القوم.

فسألهما موسى: ما شأنكما على هذه الحال؟ وما حقيقة خبركما؟ لِمَ لا تَرِدان مع القوم؟ بل لعل بينكما تنافراً أو عداء؟ قالتا: لا نسقي ماشيتنا حتى يغادر القوم وينصرفوا عن الماء. ثم بادرتا إلى إجابة عن تساؤل يتوقعانه في النفس؛ فقالتا: وأبونا شيخ كبير. وهذا وصف يدل على عجزه عن القيام بمهام الرعي والسقيا، وإنهما إنما خرجتا تزاحمان الناس لحالة ضرورة، فحال أبيهما ألجأهما إلى تحمل هذه المسؤولية.

فما كان من موسى إلا أن بادر فسقى لهما حال صدور الناس، ثم تولَّى إلى الظل، ويبدو أن الجو كان حاراً فأوى إلى ظل شجرة.

ثم توجه إلى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ رافعاً حاجته إلى الله.

ولما رجعت المرأتان إلى أبيهما سريعاً أنكر حالهما بسبب السرعة غير المألوفة، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها.

فجاءت تمشي على استحياء، وهي مشية دالة على ما كانت عليه من كمال الأدب، وعدم مخالطة الرجال. أو قالت ما قال وهي تخاطب موسى على استحياء، أي: قولها كان على استحياء لقلة جسارتها[2].

وهي مظهر من واقع الحال تدل على سمو خلقي وعفة في النفس، والحياء خلق كريم ينطق بظاهره لا بلسانه، وقد يكون التعبير العفوي عن شيء من غير الكلام أبلغ من الكلام.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قال ابن كثير: «وَهَذَا تَأَدُّبٌ فِي الْعِبَارَةِ، لَمْ تَطْلُبْهُ طَلَباً مُطْلَقاً لِئَلَّا يُوهِمَ رِيبَةً، بَلْ قَالَتْ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يَعْنِي: لِيُثِيبَكَ وَيُكَافِئَكَ عَلَى سَقْيِكَ لِغَنَمِنَا»[3].

(١) أي: من الجهة التي أطلَّ منها موسى عليه السلام على ديار مدين، الألوسي، روح المعاني (٢٠/٥٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٨٤).
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٦/٢٢٨).

وأخرج الطبري عن السدي قال: «لما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعاً سألهما، فأخبرتاه خبر موسى، فأرسل إليه إحداهما، فأتته تمشي على استحياء، وهي تستحي منه ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فقام معها، وقال لها: امضي، فمشت بين يديه، فضربتها الريح، فنظر إلى عجيزتها، فقال لها موسى: امشي خلفي، ودُليني على الطريق إن أخطأت»[1].

وأخرج عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: «رَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا فِي سَاعَةٍ كَانَتَا لَا تَرْجِعَانِ فِيهَا، فَأَنْكَرَ شَأْنَهُمَا، فَسَأَلَهُمَا فَأَخْبَرَتَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: عَجِّلِي عَلَيَّ بِهِ، فَأَتَتْهُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ فَجَاءَتْهُ، فَقَالَتْ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] فَقَامَ مَعَهَا كَمَا ذُكِرَ لِي، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَانْعَتِي لِيَ الطَّرِيقَ، وَأَنَا أَمْشِي أَمَامَكِ، فَإِنَّا لَا نَنْظُرُ إِلَى أَدْبَارِ النِّسَاءِ»[2].

وبهذا يضرب موسى عليه السلام مثلاً رائعاً في العفة عن النظر لما لا يحلُّ، فضلاً عَمَّا هو أبعد من ذلك، كما يعف عن الطعام تكرماً أن يأخذ على المعروف الذي بذله مروءة أجراً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾، أي: أخبره بما كان من أمره وما جرى له من أحداث كان آخرها ما نزل به من الخوف الذي حمله على الخروج من بلده، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، القائل هو صاحب المنزل الشيخ الكبير.

طمأن موسى عليه السلام وأهدأ خاطره، وبشَّره بالنجاة من القوم الظالمين، لأنك قد خرجت من مملكتهم، ولا سلطان لهم عليك الآن[3].

قالت إحداهما - وهي التي ذهبت لندائه - مخاطبة أباها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وذلك لشدة حاجتهم إلى من يقوم برعاية الغنم والقيام بشأنها، وهذا رجل مناسب من حيث إنه يتصف بصفات هامة ضرورية لصاحب العمل، إنه قوي؛

(١) الطبري: جامع البيان، تحقيق: أحمد شاكر (٥٦٠/١٩).
(٢) نفس المصدر.
(٣) ابن كثير (٣٨٤/٣)، الرازي (٢٤٢/١٨).

وقد علمت ذلك من حمله الحجر عن البئر. كما أنه أمين؛ وقد علمت ذلك من غض بصره عنها. أخرج الطبري عن ابن عباس، قال: «﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال: فأحفظته الغَيْرة أن قال: وما يدريك ما قوّته وأمانته؟ قالت: أما قوّته، فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه؛ وأما أمانته، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صَوَّب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إلي حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسُرّي عن أبيها وصدَّقها وظن به الذي قالت»[1].

قال الزمخشري: «وقولها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتَمَّ مرادك»[2].

فلما علم الأب بسمو أخلاقه وكرامة صفاته، وأنه خليق بالمصاهرة كُفُؤٌ وأي كفاءة، رغب أن لا يفوت الفرصة وأن يحقق لابنته مصلحة فطرية في زوج يُحْرَصُ على مثله، فقال: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

وهذا إنما يدل على حسن الاختيار وصفاء الفراسة – إن لم يكن علمه من طريق الوحي – أن يعرض عليه المصاهرة وهو على ما ظهر عليه من علائم المروءة والفتوة والقوة والأمانة والصلاح.

وأن يكون النكاح مقابل العمل مدة معلومة بأقل الأجلين إلزاماً، وأبعدهما على الاختيار، والمئونة تكون ضمناً من نتاج الغنم إذ ليس له نقد ينفق منه، مع وجود السماحة في المعاملة، وهي من أجمل ما يجده الإنسان من صور التعايش والتعامل.

(١) الطبري: جامع البيان، تحقيق: أحمد شاكر (٥٦٢/١٩).

(٢) الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، المتوفى (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٧ه) (٤٠٣/٣).

وهذا من الإحسان الزائد على مضمون العقد وشروطه[1].

قَالَ موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٨]؛ أي قال موسى ذلك معلناً ومؤكداً الموافقة على هذا العرض ليتم به إبرام العقد وتوثيقه. على أقلّ الأجلين، فهو المعنيّ بقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ فإنه إن قضى أطولهما فتفضلاً منه.

واكتفى الصالحان بإشهاد الله تعالى على ما بينهما من العقد لكمال الذمة وتحقق الأمانة والرقابة التامة التي يبعد من أي منهما الإخلال بها.

بل إن شهادة الله تعالى أوثق عند أصحاب هذه المقامات من شهادة الشهود. والشهادة تكون بحسب الحاجة إلى التوثيق وقد حددتها شريعتنا بشاهدي عدل. وقد يكون ذلك أو غيره جائزاً في شريعتهم ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

يظهر من هذه القصة ما كان عليه موسى عليه السلام من خلق العفة حين أمر المرأة أن تسير خلفه، وتنعت له الطريق، ولا تسير أمامه؛ تحاشياً من النظر إليها، كما يظهر خلق العفة من المرأة حين جاءت تمشي على استحياء، ويظهر كذلك من حرص الولي الصالح على إعفاف مَنْ يتولى أمرهم بالحلال؛ حيث اختار الشيخ أن يزوج ابنته من موسى عليه السلام حين علم كفاءته ومروءته.

من فوائد هذه القصة:

١. الإنسان الطيب العفيف يزداد في الغربة طيباً وعفة، والأمانة المستقرة في النفس ترافق صاحبها في كل أحواله.

٢. عفة النفس تظهر من خلال واقع الإنسان وأفعاله. وقد تكون الأحوال معبرة عن المعاني بأبلغ من الأقوال كما كان مشي المرأة دالاً على الحياء.

(١) ليس من غرضنا الخوض في تفاصيل العقد وشروطه وتنزيلها على مذاهب الفقهاء من حيث عقد الولي بلا إذن، أو صيغة اللفظ المنجز، أو تعيين المزوجة، أو وقع الدخول بقبض المهر، أو العقد على منفعة للزوجة أو للولي، فهذه أمور منها ما طواه القرآن، إذ ليس هو المقصود من السياق، ومنها ما تتفاوت فيه الشرائع. وقد أثار كثير من المفسرين هذه المسائل في تفاسيرهم. انظر: ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الإشبيلي المالكي، المتوفى (٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) (٣/٤٩٤-٥٠٤).

٣. من حسن الفراسة معرفة معادن الرجال وتمييز أهل الفضل وظهور العفة من العناصر الهامة في الكشف عن هذه المعادن.

٤. جواز عرض الرجل ابنتَه أو وليته على الرجل الصالح. وللبخاري باب في هذا المعنى(١).

المطلب الثاني: مراودة امرأة العزيز يوسف عن نفسه:

يحدثنا القرآن الكريم عن مشهد من حياة يوسف عليه السلام وهو في بيت العزيز، وقد آل إلى الرق حيث بِيع هناك. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

ولما تجاوز سن الطفولة، وبَلَغَ أشُدَّه(٢)، زَوَّده الله تعالى بنعمة من أعظم النعم وأجلها، إنها إيتاء العلم والحكمة الدالة على العناية الإلهية التي تولت هذا الشاب الكريم، وهكذا تتولى كل من كان محسناً.

وفي هذه السن التي كان فيه في ريعان الشباب واكتمال الرجولة في المرحلة التي تشتد فيهما مطالب الشهوة يبتلى يوسف بمراودة(٣) المرأة التي هو في بيتها، وكانت ذات منصب وجمال ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

(١) باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، طبعة بيت الأفكار الدولية (٢٢٦٢/٢).

(٢) اختلف العلماء في تحديد العمر الذين يبلغ الأشد في أقوال تدور ما بين سن البلوغ إلى الأربعين، وما بين ذلك. انظر: تفسير ابن كثير (٤٧٣/٢) وسبب الخلاف راجع لعدة أسباب منها هل قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [يوسف: ٢٢] هي النبوة، والأنبياء في الغالب يُنَبَّؤُون في سن الأربعين، أم أوتي النبوة صبياً كيحيى؟ ومنها هل الأشد: البلوغ أو هو سن الأربعين؟ ومنها ما يدل عليه السياق من أن يوسف كان لا يزال في سن الشباب وحديث عهد بالصبا.

(٣) المراودة: الإرادة والطلب برفق ولين. والرود والرياد طلب الكلأ. وقيل: هي من رويد وهي الحركة الخفيفة، يقال: فلان يمشي رويداً؛ أي: برفق، والمراودة الرفق في الطلب. القرطبي (١٦٢/٩)، ومنه في التزيل: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا﴾ [الطارق: ١٧]، ومن هذا الأصل: الإرادة. وهي قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وقد تؤخذ باعتبار المبدأ. وهو نزوع النفس إلى الشيء، وهذا الاستعمال للمخلوق أو باعتبار المنتهى، وهو المستعمل في حق الله، تقول: أراد الله كذا، أي: حكم فيه بكذا. ومنه في التنزيل: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ [الأحزاب: ١٧] ومن الأول أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو أن توجه إرادته إلى ما تريد. وهو المراد هنا. انظر: المفردات للراغب (٣٧١).

التعريف بها بالاسم الموصول مقصود لذاته ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾، ذلك أن التعريف بالاسم الموصول أوغل في تقرير الغرض الذي سيق الكلام من أجله، فلم يقل: راودته امرأة العزيز، أو راودته زليخا، وإنما قال: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾، وفي هذا إظهار لنزاهة يوسف عليه السلام وعفته إذ كونه في بيتها؛ ليس بينه وبينها حجاب أو ساتر، فهو يراها في كل حين، وهذا من شأنه أن يوقع الألفة، ويزيل الحواجز النفسية، ويجعله أكثر استجابة لما طلبت منه، ولكنه مع ذلك قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾[1].

وكان هو على حال من الحسن والجمال، وقد أحبته حباً شديداً حملها على أن تَجَمَّلت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي: هَلُمَّ إلي، أو هُيئت لك لتفعل[2].

وهي لا تظن أنه يمانع من ذلك ولا تتصوره، فشاب في سنه وفتوته، وفي خلوة بعيداً عن أنظار الناس، مع امرأة تصرح برغبتها فيه بلا تحفُّظ، وهي ذات جمال قد أعدَّت نفسها له، وتجمَّلت، ودعته إلى نفسها، وقد غلَّقت الأبواب فلا يراهما ولا يزعجهما أحد من الخلق، فما يمنعه من ذلك؟ وهي سيدته، ووجوده في البيت أمر لا يثير ريبة. إنه فتاها ويعيش في بيتها فأجدر أن يطيعها في كل شيء.

ولكنها تفاجأت حين سمعت جوابه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

أي: ألتجئ إلى الله، وأحتمي به، مِنْ فِعْلِ ما يغضبه، وهذا يدل على حضور قلبه مع الله، وأنه مستحضر رقابته، وهو أعظم مانع يمنعه من فعل الفاحشة، وقد جعله الله على مقام من العلم والحكمة. ولما كانت المرأة غير مؤمنة، فهي من: ﴿قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] لا يردعها الحال الرباني، ولا يُطْفئ سعارها الوعظ الإيماني، وجه لها خطاباً من واقع التعايش الاجتماعي بما يعد من حُسْنِ الصحبة، وحِفْظِ أمانة العشير.

(١) أ.د. فضل حسن عباس، أساليب البيان، الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)، دار النفائس (ص١٥١).

(٢) انظر: ابن كثير (٤٧٣/٢)، القرطبي (١٦٣/٩).

فقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وهو سيده الذي اشتراه أي زوجها وقد أكرم مثواه وأحسن إليه وعده منه بمنزلة الولد، فهل يليق بي أن أخونه في أهله؟! وفيه من التعريض الزاجر عما طلبت، فأنت أولى أن لا تخوني زوجك، وهل يليق بمقامك أن تخونيه؟! فإنك إن فعلت أو فعلت نكون قد ظلمنا حقه. وهكذا يخاطبها بما يتناسب مع مفاهيمها، إنها ليست مؤمنة بالله إنها من قوم يعبدون آلهة متعددة، فلا يناسب أن يقول لها: اتقي الله أو هذا حرام قد حرمه الله، أما هو فزاجره أول ما ظهر على لسانه من أول وهلة وهو الأهم عنده: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾.

ولما رأت أن لا سبيل في المراودة، فالباب مغلق، وقد اشتعلت في نفسها نار الشهوة وسعارها لمن شغفت بحبه، ولم تَنَلْ منه ما تريد ﴿هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ هماً يتناسب مع مرادها وطلبها، إذ ترى أن لها عليه حق الطاعة ولو فيما يتعلق بعفته الشخصية، فلتُكْرهه إذ إنه فتاها.

وترتسم على ملامحها أمارات هذا الهم، إذ إن تقاسيم الوجه تبدي بعض الانفعالات وتكون لغة من لغات الخطاب والحوار الذي يفهم من الآثار والمعالم الظاهرة، ويعزز هذا الإيحاء أنه قد سبق بصريح الكلام.

وما كان من يوسف إلا أن ظهرت على وجهه بوادر الدفاع عن نفسه لو أنها وصلت إليه ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: ٢٤].

وهَمَّ بها ليدفعها عن نفسه ولو احتاج إلى الضرب[1] حيث هَمَّ بفعل من جنس قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾. وفيه ما فيه من التمنع عن الاستجابة لطلبها، وهي هَمَّت بفعل من جنس قولها: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ لتلبية طلبها وتحقيق رغبتها.

ولكن الهمَّ منه لم يقع؛ لأنه رأى برهان ربه، فكانت رؤية البرهان مانعة له من الهم.

ذكر المفسرون في بيان البرهان أقوالاً عدة مبنية على روايات إسرائيلية[2]. كما أن كثرتها وتنوُّعها وتوسع الخلاف فيها يدل على عدم ثبوت نص صريح من كتاب أو

(١) انظر: القرطبي (١٦٦/٩).

(٢) قيل في البرهان أقوال عديدة، وكل ذلك ليس عليه دليل ولا يتفق مع السياق. وهذه الأقوال مبنية على أن الهم الذي صدر منه إنما هو هم بالفاحشة، وهو قول فاحش من أساسه، إذ لا يتصور أن يقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ ثم هو يهم بالفاحشة، كما لا يتصور منه ذلك وهو من المحسنين، فضلاً عن أنه يتنافى مع عصمة الأنبياء.

سنة يؤيدها، وأكثرها يقوم على أن الهمّ الذي وقع من يوسف عليه السلام هو مقدمات الفاحشة والميل إلى فعل ما طلبت، ومردها إلى الإسرائيليات التي لا تتورع عن نسبة الفاحشة إلى الأنبياء، والسياق يرد هذا المعنى؛ لأنه عليه السلام بادر إلى ذكر الله، مما يدل على أنه يستحضر عظمة الله وهيبته في نفسه، فكان أول ما نطق به: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾. ومما يدل على إبائه وشدة تمنعه ما أقرت به لما رأت ما حل بالنساء من تقطيع أيديهن لما رأينه فأكبرنه صارحتهن معبرة عن تمنعه بأبلغ الصور قائلة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ [يوسف: ٣٢]، ومعنى استعصم: استمسك، كأنّه طلب ما يَعْتَصِمُ به من ركوب الفاحشة؛ أي: تحرّى ما يَعْصِمُهُ[1]، ولما حصحص الحق واعترفت قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

كما أن الآية بعدها تدلُّ على أن الله تعالى صرف عنه أمرين اثنين، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]. لقد صرف الله عنه السوء هذه واحده، وصرف عنه الفحشاء، فهذه الثانية، أما الفحشاء فمعلوم فهو فعل الزنى، وأما السوء فهو ما تقع به الإساءة بالفعل الذي هم به لو وقع وهو الضرب والدفع، وذلك لو أنه دفعها وضربها وظهرت آثار العراك على جسدها لقالت: إنه أراد مني الفاحشة فأبيت، فعاركني بالقوة ليخلص إلي، وهذه آثار يديه في جسدي، فيكون الضرب شاهداً عليه بالإساءة إليه بالاتهام، وإقامة قرائن لإدانته وتبرئة ساحتها، ولا شك أن وجود قرائن تشير إلى اتهامه يلحقه منها سوء كثير.

ولكن الله تعالى حماه من هذا السوء بما فتح له من برهان الحفظ والرعاية الإلهية وتهيئة أبواب الفرج والمخرج لعبد تقي بادر إلى اللجوء إلى الله بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾. ومن سنته سبحانه أن يجعل للمتقين فرجاً ومخرجاً ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

فكان قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ليصرف عنه الفحشاء، ورؤية البرهان ليصرف عنه الهمَّ بالضرب المؤدي إلى السوء.

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات (٥٧٠).

من هذه القصة نستقي عدة معان منها:

١. الموانع عن ارتكاب الفواحش متعددة منها: النقد الاجتماعي، ومنها مقام الشخص، ومنها البعد عن الأسباب والمغريات، ومنها الروابط والعلاقات الاجتماعية، وأقواها تقوى الله ومراقبته.

٢. الشهوة الجنسية غريزة فطرية تكتمل عند الإنسان عند سن البلوغ، ولها سلطانها على النفس في الإلحاح إلى تلبيتها، فتهفو إليها النفوس وتشتاق، ولكن القلب المستنير الذي استقرت فيه تقوى الله، والنفس العالية التي تخشى الله تدرك أن للنفس مطلباً أسمى وغاية أعلى؛ فإشباع الشهوات ليس عندها غاية المنى، بل فوقها قوة تضبطها وتحكمها، وغاية هي أسمى منها.

٣. يمثل هذا الحوار صراعاً بين الضوابط الإيمانية والضوابط الأخرى، يوسف عليه السلام شاب بلغ أشدَّه، ودوافع الرغبة لديه قوية، يعايش امرأة جميلة مغرية، يقيم بعيداً عن البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها غريباً عن وطنه ومن يعرفه، فليس له ضوابط اجتماعية تزجره وقد جرد من المقام الاجتماعي (فيما يرى على ظاهره الاجتماعي)، حيث هو رقيق أو غلام في بيت سيده قد هيئت له الأسباب من المغريات، ومكان سِرِّي مغلق عن أعين الآخرين، ومع ذلك كله تجد حس الإيمان والخوف من الله أقوى من ذلك كله، فإن كان الناس لا يرونه إلا هذا الشاب الغريب الضعيف العبد المطيع والصيد السهل من خلال فوران الشباب والفتوة بالمغريات، فإن الإيمان يصنع منه كياناً أشبه بصخرة تتحطم على أسوارها كل سهام النيل من عفته وكرامته واستقامته، في حين يرى نفسه ذلك العبد الخاشع أمام رب عظيم قد أنعم عليه بالعلم والحكمة، يرى عين الله ترقبه وترصد عليه أعماله، فإن صلته بالله أقوى من كل الصلات، ورقابة الله أقوى من كل الرقابات، وطاعة الله تعالى أولى من جميع المخلوقات، وهذا يوجب عليه كذلك ألا يخون من أحسن إليه من البشر. أما امرأة العزيز فهي امرأة شريفة القدر، عالية المنزلة في وسط مجتمع تُعَدُّ من عليته وموضع نظره، وهي متزوجة من زوج يعفها ويحصنها، فلا حاجة لها بغيره،

ويوسف شاب غريب لا يسامي (في النظرة الاجتماعية) مقامها ولا يداني مرتبتها، ومع ذلك كله لا تضبطها هذه الموانع، فلله در الإيمان ما أعظمه وما أشد أثره في بناء شخصية الإنسان وتربيته على الكمال والاستعلاء على المغريات، وحفظ الأمانة وصون الحرمات مهما كان موقعه الاجتماعي، وفي أي مكان وزمان.

وما أعجز مواضعات البشر ومآثر الدنيا عن الرقي الحقيقي بالإنسان وصيانة نفسه وحفظ مقامه وصيانة أمانته وكرامته إن لم تنل حظاً من رعاية الله وهديه وتأييده وتثبيته!!.

٤. إن الحصانة الإيمانية والخصائص الذاتية المبنية على التقوى، خير ملجأ ووقاية للمسلم، مع صدق الالتجاء إلى الله للعون وصرف المنكر عنه في جميع أحواله، ولاسيما إذا اضطر إلى العيش في بيئة لا تمانع من الفاحشة وأسبابها، وليس فيها ضوابط شرعية وقيم اجتماعية لحمايته من الانهيار والسقوط.

٥. مخاطبة الإنسان بما يتلاءم مع ثقافته وتفكيره وتوظيف هذا الأسلوب لإقناعه بالهدف المطلوب منه من خلال نقاط اللقاء معه، فيوسف عليه السلام يخاطب امرأة العزيز من الجانب الاجتماعي ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولا يكتفي معها بالتذكير بالله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، إذ لا يردعها هذا اللون من الخطاب، فعسى أن يؤثر فيها أسلوب آخر.

٦. قد تصل بعض المقاصد والمعاني من خلال الملامح وتقاسيم الوجه والحركات، وليس فقط من خلال الكلام.

المطلب الثالث: مريم البتول والروح الأمين:

يحدثنا القرآن عن قصة ليس لها مثيل في تاريخ البشرية من خلال الآيات التالية:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا * فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا * قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا * قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ١٦ – ٢١].

هذه الآيات تكشف لنا عن موقف هذه العذراء الطيبة التي انحدرت من أسرةٍ طيبة، قد نذرتها أمها وهي في بطنها خالصة لعبادة الله. قال ابن كثير: «وَكَانَتِ (يعني أم مريم) امْرَأَةً لَا تَحْمِلُ، فَرَأَتْ يَوْماً طَائِراً يَزُقُّ فَرْخَهُ، فَاشْتَهَتِ الْوَلَدَ، فَدَعَتِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يَهَبَهَا وَلَداً، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهَا، فَوَاقَعَهَا زَوْجُهَا، فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَلَمَّا تَحَقَّقَتِ الْحَمْلَ نَذَرَتْهُ أَنْ يَكُونَ ﴿مُحَرَّرًا﴾ أَيْ: خَالِصاً مُفَرَّغاً لِلْعِبَادَةِ، وَلِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]»[(١)] فلما وضعتها فإذا هي أنثى وسمتها مريم، ونشأت نشأة كريمة طيبة لا يعرف عنها إلا الطهر والعفة.

وهذه الآيات تحدثنا عن مريم بعد أن كبرت وموقفها مع الروح الأمين، وهو جبريل عليه السلام[(٢)]، وهي تحسبه رجلًا، وتحاوره بهذا الاعتبار.

ها هي ذي تخلو إلى نفسها، لشأن من شؤونها التي تقتضي التواري من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم لشأن خاص من شؤون الفتاة، وبينما هي كذلك آمنة مطمئنة في حال انفرادها إذ تفاجأ مفاجأة غريبة![(٣)]

إنه رجل سَوِيُّ الخَلْق كامل البنية، فتنتفض انتفاضة العذراء المذعورة، فتفزع إلى الله، وتخاطب الرجل من خلال حسه الإيماني إن كان يتق الله: فإني ألتجئ إلى الله وأذكرك به، إن كنت ممن يعرف الله ويتقيه، ولا تجد أبلغ من أن تخاطبه من خلال حسه الإيماني، وإثارة رقابة الله تعالى، خاصة في هذا المكان الخالي، الذي لا تملك وسيلة دفاع إلا هذا، وهي تدرك بحسها الإيماني ما لذكر الله والإحساس برقابته من سلطان على النفس في كفها عن الشر إذا كان القلب عامراً بالإيمان.

ولكنها تفاجأ بجوابه إذ يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

وكيف تطمئن أنه رسول ربها؟ ويثير مشاعرها أن كيف يهب لها غلاماً زكيّاً، ولا يتصور ذلك على ما هو معروف ومألوف إلا من خلال وسيلة اللقاء المعهود بين الذكر والأنثى.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣/٢).
(٢) انظر الطبري، جامع البيان (١٦٣/١٨).
(٣) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (٤٣٠/٥) بتصرف.

فكيف يهب لها الغلام وهما في هذه الخلوة! إنها مفاجأة، تهز كيانها.

والغلام الزكي هو الصَالِح الطَاهِر مِنَ الذُّنُوبِ[1]، والموهوب إنما يكون نعمة لا نقمة، فلا يتصور أن يكون من سفاح يجلب العار والفضيحة.

قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

هنا تدركها شجاعة الأنثى المهدَّدة في عرضها وقد أصبح الغرض مكشوفاً، لتخاطبه بصراحة واضحة مستبعدة منكرة أن يكون لها ولد ولم تقع أسبابه؛ إنها لم يمسها بشر من قبل[2]، إنها عذراء لم تتزوج، فكيف يكون لها ولد بطريق مشروع ولم تك بغياً؟ إنها تأبى أن يكون لها ولد بطريق غير مشروع[3].

إنه يسيطر على مشاعرها وتفكيرها الجانب البشري، ولا يخرج تفكيرها عن نطاق الواقع الإنساني المعهود، وهي بذلك تعزز رفضها لهذا الموقف، وتأبى أن يكون لها ولد من هذا السبيل.

ويغيب عن مشاعرها ولا يأخذ من نفسها مأخذ ما وَجَّه إليها من كلمات إنه رسول ربها، ومن يدري وأنه جاء ليحمل لها هبة من الله، وأي هبة تأتي بهذا الأسلوب الذي لم تجر به العادة ولم يعرف في تاريخ البشر، وإنه لَغلام زكي! وكيف يكون زكيّاً؟

وهنا يختم حواره إليها حيث ينقلها إلى تلك المعاني التي غابت عن بالها، إنه وحي الله وأمره وإرادته ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، قال ذلك تأكيداً على أنه رسول من عند الله، وتمكيناً لهذه الصفة في نفسها، و﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ ليس بالعسير على الله أن يهب لها غلاماً من غير أسباب.

(١) انظر: الطبري (١٦٤/١٨). الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، المتوفى (٦٠٦هـ) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ) (٥٢٢/٢١).

(٢) قال الزمخشري: «جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه، كقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] والزنى ليس كذلك، إنما يقال فيه: فجر بها، وخبث بها، وما أشبه ذلك». الكشاف (١٠/٣).

(٣) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (٤٣١/٥) بتصرف.

تهيئة نفسية البتول لقبول الحدث والخروج به على الناس:

قبل أن تواجه مريم ابنة عمران هذا الحدث الكبير في قبول هبة ربانية خارجة عن المألوف تعرضها للشك في شرفها وخلقها، وهي المتصفة بأبلغ صفة التمنع عن الوقوع في الريبة أو الحوم حولها، يهيئ العليم الحكيم نفسها لقبول الحدث واحتواء هول الصدمة ومواجهة الناس بها، وذلك ما كشفه القرآن الكريم في المواقف التالية:

١. ما كانت تعهده من فعل الله بما كان يأتيها من أرزاق من غير أسباب، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. لقد كانت تلك الكرامات تهيئة لنفسها كي تدرك فعل الله تعالى للأشياء من غير أسباب، على غير ما يألفه الناس. لقد خَصَّها الله بهذه الخصوصية، وجعلها في أمور محببة إلى النفس، إنه الرزق الذي لا ترى فيه حرجاً من الناس لو علموا به، فها هو زكريا يدخل عليها المحراب فيرى عندها هذا الرزق، فيسألها: أنى لك هذا؟ فتقول من غير استحياء ولا حرج: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ لتكون مقدمة إلى التزود باليقين الكامل بقدرة الله تعالى، لتتهيأ نفسها لقبول فعل من أفعال الله تعالى يجريه لها من غير تعاطي الأسباب، لكن في أمر قد يوقعها في حرج وضيق تتمنى فيه الموت ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

٢. ما كانت تسمعه من نداء الملائكة، وما يحمله هذا النداء من اصطفاء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣] يمهد لنفسها أنها تعايش خلقاً من عالم الملكوت، يترددون على زيارتها وتسمع نداءهم، ولكن بالبشائر التي تدل على الاصطفاء والطهر، ولكنه اصطفاء على نساء العالمين، وما كانت تعلم حينها أنها تُهَيَّأ لأمر تخالف فيه نساء العالمين فيما يخصها الله تعالى به من حَمْلٍ بمولود بطريقة لم تجر لواحدة من نساء العالمين.

٣. إن نداء الملائكة يمهد لنفسها أن يظهر لها الملك عياناً، ولكن متمثلاً بصورة بشر سويا، جاءها كذلك بمهمة من عند الله، ليهب لها غلاما زكيّاً، وكيف يكون ذلك وليس لها اختيار ولا بد أن تذعن لهذه الهبة التي جاءت بصورة ابتلاء عظيم، ولكن الذي اصطفاها زودها برصيد ضخم من اليقين الذي تعاين به قدرة الله بإيجاد الأشياء من غير أسباب.

إن هذه الأحداث تهيِّئ نفسها لقبول الحدث، وجرت لها أمور أخرى تشد عزيمتها للخروج على الناس منها:

مناداة المولود لها من تحتها الذي ولد لتوه، إنها آية تعزز بآية أخرى حين تهز جذع النخلة اليابسة فتساقط عليها رطباً جنيا، وينفجر من تحتها جدول الماء، كل ذلك لتأكل وتشرب وهي مطمئنة قريرة العين لا يزعجها شيء، إنها تعيش في عالم آخر غير عالم البشر.

إنه غلام زكي مبارك، إنه آية للناس ورحمة من الله لبني إسرائيل وللبشرية بما يحمل من رسالة الهداية والإصلاح.

ولكن كيف تواجه قومها وقد جاءتهم تحمل هذه الهبة الربانية الكريمة؟ وكيف تقنعهم أنها هبة كريمة لا ريبة فيها ولا فجور، ولكنها رحمة وبركة؟ يتولى الله تعالى ذلك وهو واهبُ المِنَنِ، المتمم للنعمة الحامي لها، المدافع عن أوليائه.

من فوائد هذه القصة:

١. تظهر عفة السيدة البتول حين ظهر لها الروح الأمين بصورة مفاجئة على هيئة بَشَرٍ، فماذا يريد رجل من فتاة يدخل إليها في خلوتها من غير استئذان إلا أن يريد الفاحشة، فليس لها إلا أن تلتجئ إلى الله تعالى، وهذا فِعْلُ الصالحين في جميع أحوالهم، فكيف عند المفاجآت وفي المحن والشدائد وعندما يفتقدون الحيلة المادية؟

٢. وكان موقفها الرفض الشديد لقبول اللقاء مع رجل مهما كانت المسوغات والأساليب والأهداف.

٣. اشتداد وضوح الحوار وصراحته كلما وضحت المقاصد والغايات، فلا يكتفى بالرموز والإشارات حتى ولو كان الأمر مخجلاً، إذ إن الشجاعة في الحق قد تدفع إلى الصراحة بالقول بما يستحيا الحديث فيه.

٤. تكشف هذه القصة عن حقيقة مريم العذراء، وحقيقة ما جرى لها من ولادة عيسى عليه السلام بآية من الله، ليجعل منها ومن ابنها نموذجاً على قدرة الله من إخراج إنسان من أنثى بلا ذكر، كما أخرج آدم من لا أنثى ولا ذكر، وأخرج حواء من ذكر بلا أنثى، وسائر البشر من ذكر وأنثى.

٥. كما يكشف عن عفة مريم وحرصها على سلامة ونقاء وطهارة نفسها من الدنس لتكون قدوة للنساء في رفض البغاء، ورفض المهادنة والملاينة فيما يتعلق بعرضها وشرفها وعفتها، فقد نفرت أن يكون لها ولد من طريق غير مشروع. وقد تعلق بحبها كثير من البشر انتسبوا إليها وإلى ابنها، فإن كان هذا الحب والانتساب صادقاً، فليكن بالفعال من المواقف الطاهرة والسيرة النقية.

٦. لقد كانت مريم وأهل بيتها من صالحي بني إسرائيل الذين يعرفون بالصلاح والتقوى، ومن كمال ذلك أنها تأنف من الفجور والزنى، وكذلك المجتمع الذي وجدت فيه يحمل قيماً اجتماعية تنكر الفجور مما دعاهم إلى الإنكار على ما ظهر منها من الإتيان بولد تحمله من غير زواج، ولم يبرئها من إنكارهم ويحميها من مذمتهم إلا آية قاهرة، وهذا يدل على أن اليهودية في أصلها تنكر الزنى وتحرمه، وإذا كان اليهود اليوم من أكثر الأمم ترويجاً للمنكر وتعاطياً له، فإنما يدل ذلك على مدى ما لحق اليهودية من انحراف وتحريف.

٧. تُرينا الآيات بما تحمله من ثناء على مريم البتول ما للصالحين وأهل العفة والطهر من عناية ورعاية ربانية، وما ينزلهم الله تعالى من منازل.

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

النتائج:

يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة النتائج الآتية:

١. أولى القرآن الكريم الأخلاق وبناء النفس على مكارمها عناية فائقة تأتي في الأهمية بعد الإيمان وأركانه، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، فقد جعل تزكية النفوس من مهام هذا الرسول الكريم ورسالته.

٢. من مظاهر هذه العناية أنه مزج بين الأخلاق وبين حقائق الدين من عقيدة وتشريع، وبين عناصر الحياة في مجالاتها العملية المتنوعة.

٣. كان لخلق العفة نصيب وافر من العناية القرآنية في بيان منزلته ومنزلة أهله، من حيث التوجيه إليه وبيان فضله والإشادة بأهله وبيان منزلتهم، وأنهم محل نظر الله ورعايته.

٤. تُعَدُّ العفة من أهم مكارم الأخلاق التي تسمو بها النفس إلى أعلى المراتب؛ لما لها من صلة وثيقة بالتقوى والمروءة والحياء والأمانة والصبر، ولا يخفى ما لهذه العناصر من مكانة في الدين، وأهمية في حفظ المجتمع وتحقيق أمنه واستقراره.

٥. كما تُعَدُّ العفة من أهم عناصر تقويم النفس البشرية وبيان قدرها، فبمقدار ما يزداد المرء تحلياً بها يسمو وتعلو مرتبته عند الله وعند الناس.

التوصيات:

١. يوصي الباحث بتوجيه العناية في الدراسات التفسيرية الموضوعية إلى مكارم الأخلاق في القرآن، وإظهار مدى اهتمام القرآن بها في بناء شخصية الإنسان.

٢. كما يوصي بتوجيه العناية إلى الكشف عن كثير من المفاهيم الأخلاقية القرآنية وأهميتها وموقعها وثمراتها.

٣. القصص القرآني زاخر بالكثير من مكارم الأخلاق والدعوة إليها، من خلال القدوة الحسنة المتمثلة بالنماذج الإيجابية، والتحبيب بها، كما ينفر من النماذج السلبية التي ندد بها وحذر منها، مما يدعو إلى استخراجها وإظهارها.

٤. دعوة الخلق إلى ميزان السماء في تقويم الخلق من خلال ما يتحلى به المرء من مكارم الأخلاق، التي بها سمو النفس ورفعتها، وعدم تقويم الإنسان من خلال الأعراض الدنيوية المادية الزائلة.

٥. إشاعة الدعوة إلى هذا الخلق الكريم وتوجيه النفوس إليه لما في التزود به من الحصانة التي تحمي المؤمنين من الانحراف في الوقوع في الفاحشة في عصر كثرت فيه الدعوة إلى الفجور ووجدت بيئات تفتح الأبواب للفاحشة وتيارات مغرضة تروج لها لتبقى العفة هي الحصن الذي يحتمي به المؤمن من السقوط في هذه الأحوال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الأصبحي: الإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر المدني، المتوفى (١٧٩هـ)، الموطأ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).

٣. الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى نحو (٤٢٥هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ).

٤. الأصفهاني الراغب: الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار النشر: دار السلام، القاهرة، عام النشر (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

٥. الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، المتوفى (١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ).

٦. البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، المتوفى (٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٧. البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، المتوفى (٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).

٨. الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، المتوفى (٤٢٧هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

٩. حامد عوني: المنهاج الواضح للبلاغة، مكتبة الجامعة الأزهرية.

١٠. ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المتوفى (٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

١١. التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية.

١٢. ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي، المتوفى (٧٢٨هـ)، حجاب المرأة ولباسها في الصلاة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة السادسة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

١٣. الحجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة العاشرة (١٤١٣هـ).

١٤. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، طبعة بيت الأفكار الدولية.

١٥. الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، المتوفى (٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

١٦. الدويش، عبد الله بن محمد بن أحمد، المتوفى (١٤٠٩هـ)، تنبيه القارئ لتقوية ما ضعفه الألباني، ويليه: تنبيه القارئ لتضعيف ما قواه الألباني، تقديم: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، أشرف على طبعها وتصحيحها: عبد العزيز بن أحمد ابن محمد المشيقح، الناشر: دار العليان للنشر والنسخ والتصوير والتجليد، بريدة، الطبعة الأولى (١٤١١ هـ - ١٩٩٠م).

١٧. الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، المتوفى (٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

١٨. الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، المتوفى (٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ).

١٩. الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، المتوفى (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ).

٢٠. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، تحقيق: يوسف النبهاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

٢١. الشربيني: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشافعي، المتوفى (٩٧٧هـ)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة (١٢٨٥هـ).

٢٢. الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني، المتوفى (١٣٤١هـ)، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٢٣. الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر، المتوفى (٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

٢٤. ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى (١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤هـ).

٢٥. عباس: أ.د. فضل حسن، أساليب البيان، الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)، دار النفائس.

٢٦. ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الإشبيلي المالكي، المتوفى (٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

٢٧. ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي، المتوفى (٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).

٢٨. الغرناطي: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، المتوفى (٧٠٨هـ)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٩. الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري، المتوفى (١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٣٠. القاري: علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي، المتوفى (١٠١٤هـ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

٣١. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، المتوفى (٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

٣٢. قطب: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، المتوفى (١٣٨٥هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة.

٣٣. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، المتوفى (٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، الطبعة السابعة عشر (١٤١٢هـ).

٣٤. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، المتوفى (٤٥٠هـ): أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة (١٩٨٦م).

٣٥. ابن مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، المتوفى (٤٢١هـ)، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، حققه وشرح غريبه: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى.

٣٦. ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، المتوفى (٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ).

٣٧. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المتوفى (٣٠٣هـ)، السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

٣٨. نكري: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

٣٩. الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، المتوفى (٤٦٨هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

٤٠. الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان الشهير بالمتقي، المتوفى (٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٨٩
المقدمة	٩٠
المبحث الأول: معنى العفة في اللغة والاصطلاح والاستعمال القرآني	٩٢
المبحث الثاني: خلق العفة في القرآن دراسة إرشادية توجيهية	٩٨
المطلب الأول: الثناء القرآني على خلق العفة والإرشاد إليه	٩٨
المطلب الثاني: الثناء القرآني على أشخاص تميزوا بالعفة	١٠٣
المطلب الثالث: وسائل الإعفاف التي وجه إليها القرآن	١٠٨
المبحث الثالث: خلق العفة في القرآن دراسة تطبيقية	١١٤
المطلب الأول: موسى عليه السلام وابنة صاحب مدين	١١٤
المطلب الثاني: مراودة امرأة العزيز يوسف عن نفسه	١١٩
المطلب الثالث: مريم البتول والروح الأمين	١٢٤
الخاتمة	١٣٠
قائمة المراجع	١٣٢
فهرس الموضوعات	١٣٧